الخبر المثير

بقلم : محمد القرش

فى لهفة تناولت الجريدة من بائع الصحف .. أسرعت بالقاء نظرة على العنوان الاحمر الضخم المثير .. كان أملى كبيرا فى أن أجد العنوان الذى أبغيه .. سابقتنى عيناى على بقية عناوين الصفحة الأولى .. الأمل الذى يملأ جوانحى يتسرب قطرة فقطرة وأنا أكاد أصل لآخر الصفحة .. مع ذلك لا يزال قلبى يخفق ببقية من أمل .. خطر لى أن الخبر منشور فى الداخل.. وفى صفحة كاملة على الأقل .. هدأ روعى بعض الشىء .. لقد قضيت الليل بطوله أتخيل تبويب هذه الصفحة .. كدت أقلب الصفحة الأولى حينما وقعت أنظارى على الخبر .. فى آخر العمود الأخير .. بحروف صغيرة وفى سطور قلائل .. مع ذلك لمعت عيناى وأسرعت نبضاتى .. نظراتى تجرى على السطور مسرعة .. أمل خفيف يراودنى أن أجد بقية الخبر منشورا فى الداخل .. احتضر أملى وأنا أصل لآخر كلمة .. دهشة شديدة استولت على وانتابتنى خيبة أمل مريرة .. هذا الحدث الذى توقعت له صفحة كاملة .. لا يحظى الا بهذه السطور التافهة والفرصة التى انتظرتها سنوات طويلة من عمرى ما اتيحت لى حتى تعمدوا أن يتجاهلونى كأى شخص نكرة وكأنى لم أفعل شيئا يشار اليه ببنان الفخر .. كنت دائما أحلم بعمل بطولى يرغم الناس على تقديرى ولألمح فى عيونهم نظرات الاعجاب .. فى صباى طالما تمنيت أن تشتعل النيران فى منزلنا .. ويتأجج اللهب عنيفا مزمجرا .. ويعجز رجال الاطفاء عن اقتحامه .. وكل أهالى الحى متجمعون يراقبون النيران .. ثم أندفع من بينهم كأحد أبطال الأساطير وأقتحم الأتون المشتعل .. لأنقذها .. بنت الجيران .. وأحملها بين أحضانى وأعود بها .. ويحملنى القوم على أكتافهم وهتافات الجماهير تشق عنان السماء.. وظل نفس الحلم يراودنى أعواما عديدة وان اتخذ صورا أخرى..

وحققت حلمى..والفرحة التى رتعت بين جوانحى لا توصف .. ولكنها وأسفاه لم تكتمل .. وأنتم السبب.. فى شبه اجماع خفى بينكم أجمعتم على أن تحرمونى من اكليل المجد لأنكم قساة ظلمة .. هل تتعجبون من اتهامى لكم ؟ .. أتظنون بى الجنون لأننى أتهمكم دون معرفة ؟ .. اننى أعرفكم واحدا واحدا وان كنتم لا تعرفوننى .. وسأثبت لكم صحة اتهامى وخطأ ظنونكم .. والآن لعل بكم فضولا لأن تعرفوا

ما حدث .. حسنا سأرويه لكم ..وان كان شعورى بالغيظ منكم لنكران الجميل يطغى على مشاعرى الأخرى .. حتى زهوى بما حدث .

سيارة الأتوبيس رقم ٢٣ منطلقة بأقصى سرعتها كالعادة مزدحمة تماما بالركاب .. فجأة صاح أحد ركاب الدرجة الأولى بفزع : السائق مات .

وقنبلة من الذعر انفجرت بين الركاب .. بلا وعى اندفع ركاب الدرجة الأولى فى جنون متكاكاين على المنفذ الموصل بين الدرجتين .. كنت فى هذه اللحظة أهم باعطاء أحد الركاب بقية نقوده حينما هرع الراكب فى هلع ثم دفعنى فى عنف دون أن ينتظر الباقى منفلتا صوب آخر العربة .. ولولا أن جلست مكانه بسرعة لجرفنى تيار الراكبين الفارين من مقدمة العربة .. دلفت الى الدرجة الأولى .. كانت المقاعد خالية تماما .. وقعت أنظارى على الأسطى «بشاى» وقد انكفأت رأسه على عجلة القيادة وتهدلت ذراعه اليمنى بجواره متأرجحة مع حركة العربة ..والسيارة تهدر كوحش انفلت من عقاله وأضواء الطريق تلمع .. وأمامنا وبجوارنا العربات منطلقة كسيل جارف .. من بعيد لمحت اشارة المرور الخضراء تتحول الى اللون الأصفر وتوشك أن تصبح حمراء .. والعربات أمامنا تتمهل لتقف .. الاصطدام الرهيب على وشك أن يحدث حتما .. ماذا أفعل ؟ .. اننى لا أعرف القيادة ولا فائدة من الاستنجاد بأحد الركاب فلو كان أحدهم يعرف القيادة لما انتظر حتى الآن .. خطر لى أن أقفز من السيارة .. نفضت عن خواطرى بسرعة .. ودون ماتفكير كنت بجوار الاسطى بشاى..دفعته بجسدى ناحية اليسار ويداى على عجلة القيادة واحتللت مكانه .. وكانت أول مرة فى حياتى أجلس على مقعد قيادة سيارة سائرة ... لا تسألونى كيف تمكنت من ايقافها .. وعلى بعد سنتيمترات قلائل من مؤخرات العربات الواقفة أمام الاشارة الحمراء .. أنا نفسى لا أعلم.. كانت قطرات العرق الباردة تنبع من كل مسام جسدى .. شعور بالانبهار والدهشة يسيطران على.. كيف أمكننى ذلك ؟ .. لعل لحظات الفراغ التى أختلسها وأقف فيها بجوار السائق لأحتسى قدحا من الشاى أو أدخن سيجارة أو لأثرثر معه .. والتى كنتم تضيقون بها وتنظرون لنا شذرا .. هى السبب .. كنت أرقب ما يفعله بلا وعى منى .. وفعلت ما يفعله بلا وعى أيضا .. ربما كنت أفضل أن أكون سائقا .. المهم .. ما انتظمت أنفاسى وهدأ روعى .. حتى انتظرت فى زهو وشموخ .. قلائد المديح والثناء التى ستطوق عنقى .. مضت لحظات ولم يحدث ما أتوقعه .. سوى نفير العربات خلفى تعوى فى جنون لأفسح لها الطريق .. وكان هذا آخر ما أفعله فى حياتى .. واذا بسائق عربة أجرة يقف أمام باب العربة وينهال على بسبابه كالمعهود من كل سائق سيارة .. تخليت عن مقعدى وأشرت الى جسد الاسطى بشاى باصبعى ولم أنبس ببنت شفه .. والتفت نحو داخل العربة .. كان الجميع مشغولين عنى بأنفسهم .. بكاء ونشيج وضحكات وقهقهات هستيرية .. ورجال وسيدات وأطفال يتعانقون .. ومن حضر منهم بدافع

الفضول كانت وجوههم الشاحبة التى زادها ضوء العربة اصفرارا تعود اليها الدماء بالتدريج .. ورغم مختلف التعليقات عما حدث فقد نسونى جميعا .. ومع ذلك كنت سعيدا بنفسى .. فى داخلى فرحة تغمرنى .. فقد كنت صاحب المعجزة التى حدثت .. أنا وحدى الذى أنقذت كل هؤلاء .. غمرت عينى غشاوة من الدمع وأنا أرقب كل هذه الانفعالات .. أحسست أننى شىء ما .. لأننى حققت حلم عمرى وأصبحت بطلا .. وهؤلاء الذين نسونى لان كلا منهم كان مشغولا بنفسه ... لم ألمهم والتمست لهم العذر .. ان الصدمة أفقدتهم الرشد فلم ينتبهوا لايفائى حقى من الشكر .. وحتما سأنال حقى من تقدير الصحافة .. ستتحدث الجرائد عنى بما يشبعنى .. سأصبح شهيرا فى ساعات .. صورتى منشورة فى الصفحة الأولى .. هل أخطأت فى أمنيتى ؟ .. هل تلومونى لأننى أبحث عن التقدير ؟ ..

كل منا فى حاجة ملحة الى التقدير ولست وحدى .. فى أعماقنا رغبة دفينة وظمأ دائم يلح علينا منذ طفولتنا حتى كهولتنا .. فى كل أعمالنا نبحث عن الاهتمام بشىء ..

وقضيت ليلتى مع أحلامى الذهبية فى انتظار الصباح .. وكما تعرفون .. لم يحدث شىء .. وكأن الجميع قد اتفقوا على ذلك . حتى اسمى أغفلوه وذكروا فقط اسم المرحوم الاسطى بشاى .. أجمعت كل الصحف على تجاهلى .. عشرات الركاب .. النساء والأطفال .. الصبية والكهول .. كلهم نسونى .. لم يشد على يدى أحد منهم .. لم تدغدغ اذنى كلمة شكر من احدهم .. والتمست لهم العذر .. ولكن رجال الصحافة .. والصحف التى أهملت الخبر المثير .. ما عذرهم ؟ .. لماذا تجاهلوننى ؟ .. هل يوجد أشد اثارة مما حدث ؟ .. أكانوا ينتظرون حدوث مذبحة مروعة ؟ .. لتكتب أقلامهم عن عشرات القتلى والمصابين .. ممن تهشمت عظامهم وبترت أعضاؤهم ؟

هل هذا هو الخبر الذى ينتظرونه ؟ .. حتى يملأوا أعمدتهم بما تهلع له القلوب وتنكوى به النفوس .

لماذا نهتم بالموت فقط ولا نهتم بالحياة ؟ .. الحياة الحلوة التى كتبت للعشرات .. ولكل منهم قصة .. ولعل فيهم من سيذكره التاريخ .. وربما كان منهم أحد العباقرة الذى تفيد أبحاثه البشرية .. ولكنه فى نظرهم شىء لا يثير الاهتمام .. لو تصادف وحدث أن انزلقت قدم أحد الركاب والسيارة تتحرك .. أو حدث احتكاك مع راكب ما .. لقامت القيامة .. الصحف والاذاعة .. والكل يسلقوننى بألسنة حداد .. ولأصبحت عدو الشعب رقم واحد .

وساءلت نفسى ما السر ؟ .. أهو الزحام البغيض الذى تلاقون منه العناء كل يوم فى ذهابكم وعودتكم مرتين أو أكثر يوميا؟ فهذه الدقائق التى تقضونها فى الركوب تثير أعصابكم وتجعلها سريعة الالتهاب .. فما بالكم بى وأنا أقضى ساعات طويلة كل يوم .. بل عمرى بأكمله فى هذا الزحام .. شاقا طريقى من مقدمة العربة لمؤخرتها .. أغلبكم لا يقدم لى الا ورقات مالية ..

واذا ما أمهلت أحدكم حتى يتجمع لى بقية نقوده .. ما تمضى لحظات حتى يعلو صوته صارخا مطالبا بالباقى ولو كان باقيا الكثير على محطة نزوله .. ويجدها البعض فرصة مواتية يتحدث فيها مع من حوله عن تحايلى وسعة ذمتى وبراعتى فى الاغتصاب .. وحكايات تروى وكأنى أرسين لوبين.. وسيف الاتهام معلق فوق رأسى دائما.. نداؤكم لى اصطبغت نبراته برنة الاستخفاف .. أغلب ألفاظكم الموجهة لى حادة .. وفى استفزاز .. لأقل التباس تتجهم الوجوه وتلتهب الكلمات .. ونسيتم أننى بشر مثلكم .. وان أعصابى تفلت منى ايضا .. اننى لن أدعى أننى ملاك معصوم من الخطأ .. اننى أحيانا أستحق هذه المعاملة منكم .. ولكننى غالبا أكون الضحية .. الكثير منكم لا يرى سوى يدى الممتدة لتعطيه التذاكر أو تتناول منه النقود.. وان ألقى أحدكم نظرة على فبلا اكتراث وفى شرود .. فقط تتفحصوننى بأبصاركم وترمقوننى بنظرات الغضب والنفور اذا حدث شىء مما تألفون .. ومع أننى حاولت ولم أكف عن المحاولة أبدا فى أن أتقرب اليكم .. ابتسامتى بلا انقطاع .. ألفاظى رقيقة غالبا .. سريع التجاوب مع من يحب المداعبة منكم .. وأول من يضحك ولو كنت الهدف .. وحينما نشترك فى الضحك جميعا .. حينئذ أشعر أننى واحد منكم .. وأحبكم جميعا وأود لو تبادلونى مشاعرى .. ولكن أعصابكم المرهفة وسرعة غضبكم .. وذلك الحاجز الخفى القائم بيننا .. هو الحائل الذى يجعل التفاهم بيننا عسيرا .. هل تعرفون ذلك الحاجز الخفى ؟ اننى أراهن بمرتب شهر على أن الغالبية العظمى منكم لن تعرفه .. فقط قلة منكم ، أعرفهم من نظرة فاهمة فى عيونهم،، من رقةالفاظهم ولن الومممن لايعرفه منكم .. فأنا نفسى مع أننى قضيت أعواما طويلة فى هذه المهنة لم أعرف السر ، هذه الحادثة هى التى ألقت الضوء عليه وكانت السبب فى أننى عرفت .. السر فى تضامنكم جميعا ضدى .. تعاطفكم مع أى واحد منكم ولو كان مخطئا، وحتى الذىيضيق بالخطأ لا يفعل شيئا سوى السكوت .. مع أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ويشجعكم على أنكم لا تخشون اللوم فمن يلومكم ؟ .. وهو حق اكتسبته الجماعة .. وتشعرون بنفس اللذة التى يشعر بها أطفالنا حينما يقسون على صغير منهم ويضطهدونه بلا سبب .

وسيول من الخواطر تدفقت داخل رأسى .. الى أن استرجعت الفترة التى كنت فيها واحدا منكم .. حينما كنت أحد الركاب ، طبعا كنت واحدا منكم فى يوم ما .. أم لعلكم تظنون اننى ولدت كمساريا وهذا اللقب الذىامتهنته السنتكم .. السكة الحديد هى السبب فيه .. استوردته مع قاطراتها .. ودخل ضمن مفردات لغتنا .. ومن كوميسير الى كمسارى .. واصلها مأمور .. مأمور شرطة .. مأمور قطار واعود بكم لتلك الحقبة من حياتى حينما كنت طالبا بالمدارس .. كانت سيارات الاتوبيس والترام ملك لشركات أجنبية ووجدت التبرير لان أتغافل عن دفع ثمن تذكرتى.. ألست رجلا وطنيا .. وكان هذا رأى طالب زميلى يكبرنى عمرا ، وفى بعض الاحيان لم تكن النية متوفرة لدى

فثمن التذكرة فى يدى ، ولكن الحصل لانهماكه فى عمله يغفل عنى ·· ولكن لا أنسى أبدا الحرج الذى كنت أحسه والقلق الذى يسيطر على طيلة ركوبى ، والخوف من الافتضاح ·· وكان السبب فى ذلك العناء الذى يكبد أعصابى الكثير هو الكمسارى ·· خشيتى من كلمة سخيفة منه ·· من نظرة احتقار فى عينيه أحيانا يحدث هذا الراكب بجوارى ·· ولم أغفر له ·· وكان السبب فى أننى كرهت الكمسارى وقتذاك ·· ولماذا كرهته ؟ لأننى كنت أخشاه ·· أن يكشف حيلتى ·· أن يفهم دناءتى ·· فى سبيل قرش واحد كنت أدفع هذا الثمن الباهظ من كرامتى ·· ونقمت عليه ·· ولكن كيف أرد لنفسى اعتبارها ؟ ·· كيف أنتقم منه ؟ ووجدت الفرصة مواتية لان أنكل به مع الجميع فى أى خطاء يقع فيه ·· وحتى اذا كان الخطأ من الراكب ·· يكفى أن يصطدم بأحدنا ·· حتى يجمعنا كلنا نحن الركاب شعور خفى بالتعاطف مع زميلنا لاننا نفس الرجل، وأظن أن أغلبنا حدث له هذا من فترة من عمره ·· ونجدها مناسبة لان نمارس الشعور بالاستعلاء على الكمسارى واحتقاره ·· وعرفت السر فى استعلائكم على واحتقاركم اياى ·· وضحكت لاننى لست أنا من تحتقرون ··انكم تسخطون على أنفسكم ولا تعترفون بهذا ·· وانا الضحية الذى احمل عنكم خطاياكم الصغيرة · ورجال الصحف الذين تجاهلوننى ·· أليسوا هم أيضا منكم ؟ من العجيب أن غيظى منكم وحقدى عليكم وضيقى بمعاملتكم كل هذه المشاعر تلاشت من نفسى ·· وأفسحت السبيل لحب كبير لكم ·· وألم للمشاعر الخاطئة التى تجرفكم ، والآن هل أثبت لكم صحة اتهامى، اننى لا أقصد اتهامكم ·· ولكن كل ما أبغيه أن يزول الحاجز الخفى الذى بيننا